الرؤية المنهجية في تأليف كتاب "المصون" للحصري القيرواني

The methodological vision in writing the book “Al-Masoon” for El Hosari El Kairouani

الدكتور العيد بوده

عضو المجلس الأعلى للغة العربية (الجزائر)، elaid88@gmail.com

تاريخ الإرسال	تاريخ القبول	تاريخ النشر
2024 / 07 / 13	2024 / 09 / 03	2024 / 12 / 01

مُلَخَّصُ البَحث

يهتم هذا البحث بتحديد المؤشّرات المنهجية في كتاب "المصون في سر الهوى المكنون"، الذي يُعَدُّ من أمهات الكتب الأدبيّة المغربيّة القديمة. إذ وعلى الرغم من أهميّته الأدبيّة والثّقافيّة، فإن كتاب "المصون" لم يحظ بالعناية البحثية اللازمة التي تليق به. مما دفعني إلى محاولة النّبش في طريقته التّأليفية بغرض الوقوف على المنحى المنهجي الذي انبثق منه، ناهيك عن تتبعي لمدى استثمار التّجربة المشرقية الأدبيّة في إنجاز الكتاب، مع محاولة استنتاج ملامح الخصوصية الثقافية للمغرب الإسلامي في التأليف، وفق ما جاء في هذه المدوّنة .

الكلمات المفاتيح: منهجيّة التأليف، المصون، الحصري القيرواني، النقد القديم، المغرب، المشرق.

Abstract

This research is concerned with defining the methodological indicators in the book "Al-Masoon", which is considered one of the mothers of the ancient Magrebian literary books. As despite its literary and cultural importance. The book “Al-Masoon” did not receive the necessary research attention that befits it, which prompted me to try to dig into its authoring details in order to identify the methodological approach that emerged from it, not to mention the extent to which the Oriental literary experience was invested in the completion of the book, with an attempt to deduce the features of the cultural specificity of Morocco. Islamic authorship, according to what was stated in this blog.

keywords: authorship methodology. Al-Masoon. El Hosari El Kairouani.old critisem. Magreb. Mashreq.

1.مقدمة

يحتل الإطار المنهجي مكانة مهمة في حركة التأليف القديم. لاسيما وأنه يعكس استجابة المؤلفين لمقتضيات البيئة الثقافية التي تكتنفهم. كما أن الرؤى المنهجية التي اعتمدها المؤلفون القدامى تجعلنا نقف على عدة ظواهر من شأنها إبراز أنماط التأليف، وأبعاد الفكر والثقافة السائدين في السياقات الزمانية والمكانية التي احتضنت مؤلفاتهم.

تتضح أهمية الدراسة في تناولها جانبا مهما في مضمار الدراسات الأدبية و النقدية، وهو البناء المنهجي في التأليف، الذي يشكل لبنة أساسية في أدبيات الكتابة النقدية والأدبية قديما وحديثا. علاوة على ذلك فإنها تتناول منجزا أدبيا عريقا لم ينل حظه بعد من الاهتمام الكافي. على الرغم من كون كتاب "المصون" من المدونات التي تشكل مكونا ثقافيا راسخا في إقليم المغرب الإسلامي القديم. ولعلني بإنجاز هذه الدراسة، أكون قد أسهمت ولو قليلا في إضاءة جانب مهم في التجربة الأدبية للحصري القيرواني، الذي تجمعني به وشائج التقدير، ويربطني به واجب العناية بمؤلفاته العتيقة؛ اضطلاعا بمسؤولية البحث العلمي في مجال نقد أدبيات التراث المغاربي. الذي اخترت منه كتاب المصون في سر الهوى المكنون، بغية محاولة الوقوف على الرؤية المنهجية للحصري القيرواني في تصنيفه، من خلال محاولة الإجابة عن التساؤلات الآتية: هل يقوم كتاب المصون على منهجية تأليفية مدروسة. أم أنه مدونة أدبية لا تحتمل أي ممارسة منهجية في التأليف؟ وهل يحتوي المصون حمولة نقدية تترجم لنا الثقافة النقدية لمؤلفه؟ وإلى أي مدى يمكن أن تُعَرِّفَنا هذه المدونة بالسمات الثقافية السائدة في المغرب، على أيام الحصري القيرواني؟

ولمحاولة الإجابة عن هذا التساؤلات، فقد انتظمت خطة الموضوع في أربعة مباحث؛ حيث تضمن المبحث الأول التعريف بالمؤلف، بينما تناول المبحث الثاني التعريف بمدونة الدراسة، وهو كتاب المصون في سر الهوى المكنون(المصون)، ثم خصصت المبحثين الأخيرين للعناصر المنهجية المتحققة في المدونة؛ حيث تناولت في المبحث الثالث المؤشرات المنهجية المصرح بها من طرف الحصري القيرواني، وقد قسمتها إلى نوعين؛ تمثل النوع الأول في المؤشرات الشكلية، وتحدد النوع الثاني في المؤشرات المضمونية. أما المبحث الرابع فخصصته للمؤشرات المنهجية المستنتجة من خلال قراءتي الاستنتاجية، التي حاولت فيها مناقشة ونقد بعض الظواهر المنهجية. ثم ختمت العمل بمجموعة من الملاحظات النقدية إزاء الطريقة التأليفية المعتمدة في كتاب المصون.

2. تقديم عينة الدراسة

1.2 ترجمة المؤلف

يُصَنَّف الحصري القيرواني ضمن الأعلام البارزين في مدونة النقد العربي في المغرب الإسلامي، ولعل أحق الناس بالشهادة للحصري هو تلميذه ابن رشيق، إذ يشير في أنموذجه إلى مكانة الحصري في عصره فيقول: " كان شاعرا نقادا عالما بتنزيل الكلام وتفضيل النظام، يحب المجانسة والمطابقة ويرغب في الاستعارة ... وكان شبان القيروان يجتمعون عنده ويأخذون عنه."[1]

اسمه الكامل: أبو إسحاق إبراهيم بن علي بن تميم الحصري الأنصاري القروي[2]، وذكر ابن رشيق أنه ابن خالة أبي الحسن الحصري(الملقب بالضرير).والحُصْري كما قال ابن خلكان نسبة إلى عمل الحصر أو بيعها، وقد شكلها بضم الحاء وتسكين الصاد. وقد تعددت الآراء حول حقيقة تلقيبه بالحصري، ويمكن أن نأخذ رأيا تقريبيا للمؤرخ حسن حسني عبد الوهاب الذي قال: "الحصر وهي قرية صغيرة كانت حذو القيروان يصنع بها الحصر."[3] ولم تشر المصادر القديمة التي ترجمت للحصري إلى مكان وتاريخ مولده، ولعل ذلك يعود كما أشار الدكتور الشويعر إلى أن الحصري ولد في بيئة عادية، ولم يكن من بيت أو علم أو جاه حتى يُحْتَفى بمولده. لكنه عاش حياة جعلت منه علما بارزا، وقد اعتبره الدارسين همزة وصل مهمة بين التراث المشرقي والمغربي، من خلال مؤلفاته التي شكلت مصدرا رئيسيا لأدب المشارقة بالنسبة للمغاربة والأندلسيين. ويكفي أن تَطَّلِع على كتابيه زّهر الآداب و النورين، لِتُعَايِنَ الحصيلة الأدبية المشرقية الكثيفة التي رُصِدت فيهما. وهذا ما يدفعنا للبحث في ملامح المنهج التأليفي عند هذا الناقد اللامع، سعيا منا لإبراز مدى التفرد والإتباع من خلال كتابه النورين.

2.2 وصف المدونة (كتاب المصون في سر الهوى المكنون)

تُصَنَّف مؤلفات الحصري ضمن "كتب الأدب الجامعة" التي تجمع بين طياتها ثقافات متنوعة، وأخبارا جما، وأشعارا غزيرة. وهي من الكتب التي وُضِعت لانتقاء عيون الشعر أولا، ثم دخلتها صناعة التبويب بعد ذلك. وقد أطنب مؤلفوها في صعوبة الاختيار المُرْضِي الذي يؤاتي الأذواق على رغائبها، ويتابع النفوس بمطالبها، حتى قالوا: دَلَّ على عاقل اختياره.[4]

وقد ارتبط ظهور هذا النوع من الكتب مع بدايات القرن الثالث هجري، وكان الجاحظ أسبق المؤلفين إلى هذا النوع من المصنفات في كتابيه "الحيوان" و"البيان والتبيين"، ثم جاء كتاب "الكامل" للمبرد (ت 285هـ) وكتاب "عيون الأخبار" لابن قتيبة (ت 276هـ).ومن المؤلفات الصادرة خلال القرن الرابع نجد كتاب "العقد الفريد" لابن عبد ربه الأندلسي وكتاب "الأمالي" للقالي، وقد جاءت كتب الحصري سائرة على هذا المنهج الأدبي الجامع الذي يأخذ من كل فن بطرف.

أما كتاب المصون، فإن أول من ذكره هو ابن رشيق، كما وصفه ابن خلكان بأنه مجلد واحد فيه ملح وآداب[5]، وهو كتاب يبحث في عاطفة الحب بصفة عامة، وعلى ذلك يعد هذا الكتاب أقرب إلى التخصص في موضوع واحد، مخالفا بذلك زهر الآداب والنورين، وجمع الجواهر. وقد طبع هذا الكتاب أول مرة بتحقيق محمد عارف محمد حسين سنة 1986،عن مطبعة الأمانة بالقاهرة، ثم سنة 1989 عن دار العرب للبستاني، بتحقيق النبوي عبد الواحد شعلان.[6]

لقد تم تصنيف الكتاب بطريقة متميزة حيث قسمه المؤلف إلى جزأين دون تبويب، فجاء الجزء الأول في قالب حواري أجراه على لسان عاشقين، تجمعهما وشائج الحب العذري، وقد انتحل المؤلف شخصيتهما، وأبقى على حقيقة ما دار بين العاشقين من حديث تقريري عن واقع الحب ودعائمه ومسائله، أما الجزء الثاني من الكتاب فقد جاء حافلا بأخبار العشاق وأشعارهم، مما يعني أن الكتاب ليس حوار من أوله إلى آخره، وإنما يكون الحوار تمهيدا لما سيسوقه ويستشهد فيه المؤلف بالكثير من الأشعار والأخبار.[7]

وأشار الدكتور الشويعر إلى مسألة تأثر ابن حزم في كتاب "طوق الحمامة" بكتاب المصون للحصري؛ حيث اشترك الكتابان في الحديث عن الهجر وفلسفته، وأفاضا في تفصيل آثاره ومظاهره، وذلك ما جعله يرى أن كثرة التشابه بين الكتابين في الأمثلة يحيل إلى تأكيد تأثر ابن حزم بالحصري، وليس الأمر من باب توارد الخواطر واتفاق المصادر، خاصة إذا علمنا أنَّ ابن حزم ألف كتابة بعد وفاة الحصري، وللدكتور الشويعر تحقيق قيم في مسألة التأثير هذه.[8]

رغم أن كتاب المصون يُعَدُّ كتابا مُخْتَصًّا في موضوع واحد. إلا أنه لم يخل من نصوص كثيرة تناولها المؤلف في كتاب زهر الآداب، ما يعني أنّ مصادر المصون هي نفسها مصادر زهر الآداب المشرقية التي تناولت أخبار العشاق، على غرار الهمذاني، والجاحظ، والثعالبي، والمرزباني، ناهيك عما نقله الحصري مترجما عن فلاسفة اليونان كأفلاطون وأريسطو، وبطليموس، وجالينوس الذين فلسفوا الحب وعنوا بدراسته.

أعود للقول أنني قمنت بتفريع المناهج التأليفية للكتب إلى قسمين: حيث تضمن القسم الأول المنهج المنصوص عنه على ضوء تصريحات المؤلف(الحصري)، ويتضمن القسم الثاني مؤشرات المنهج المستنتج من طرف الباحث. ثم قمت بتفريع القسم الأول (المنهج المنصوص عنه) إلى جزأين؛ حيث تناول في الجزء الأول المؤشرات المنهجية الشكلية (الخارجية)، وخصَّصْت الجزء الثاني للمؤشرات المنهجية المضمونية، المتعلقة بالرؤية الفكرية للمؤلف.

علما بأن مؤشرات القسم المنهجي المصرح به لم ترد مرتبة ولا مُفَرَّعة بالشكل الذي أورده الباحث، بل جاءت متداخلة مع بعضها في تصريحات الحصري. وقد عمدت إلى تقسيمها وفق مقاييس التدرج الوصفي الذي يبدأ من الخارج إلى الداخل، ومن الشكل إلى المضمون. إذ أن الشكل الخارجي هو الذي يخلق العلاقة بين المتلقي والمدونة. وهذا ما نُعِدُّه ابتكارا لم نُسْبَق إليه، في حدود اطلاعي المتواضع على الدراسات السابقة، فالباحث كما يقول الدكتور أحمد شلبي: يبدأ من حيث انتهى غيره من الباحثين؛ ليسير بالعلم خطوة أخرى، وليسهم في النهضة العلمية بنصيب. وليس الابتكار المطلوب في الرسائل هو كشف الجديد فحسب، بل هناك أشياء أخرى غير الكشف يشملها لفظ الابتكار؛ وذلك مثل ترتيب المادة المعروفة ترتيبا جديدا مفيدا، أو الاهتداء إلى أسباب جديدة لحقائق قديمة، أو تكوين منظم من مادة متناثرة أو نحو ذلك.

3.المنهجية المنصوص عليها في مقدمة الكتاب:

1.3 المؤشر المنهجي الشكلي:

اسم الكتاب:

لقد لوّح الحصري إلى عنوان الكتاب بقوله: « فوشي ديباج هذا المصون في سر الهوى المكنون.»[9]

وهذا يعني أنه لم يسمي الكتاب صراحة مثلما سمى الزهر والنورين، لكن السياق النصي جعل المحققين ومعهم الدكتور الشويعر يقولون بإثبات هذه التسمية للكتاب، ومسوغ هذا فيما يُقَدِّر الباحث؛ طريقة الحصري في سجع عنواناته، وتقديمها في معرض مقدماته التعريفية بكتبه.

2.3 المؤشرات المنهجية المضمونية

أ- موضوع الكتاب:

يشير الحصري إلى موضوع الكتاب وطبيعته ببيان أن الكتاب يتضمن حوارا بين أليفين نشآ في وفاء وصفاء؛ حيث يبدأ الكلام بوصف الأليفين، ثم ينتقل إلى تقرير الحوار على النحو الآتي:« التقى أليفان نشآ في عراض الصفا، ورتعا في رياض الوفاء، وألفا الاسترواح إلى مباثة السرائر، وتألقا على استثارة ما في الضمائر، وكانا إذا اجتمعا رجعا، وقد قدح الاجتماع نارهما ،وأسرج الاسترواح أفكارهما، وكانا إذا استقت العقول لأذافر أخلافهما، وتطعم النفوس معسول مذاقهما، وتنفحت أفوافا عراض غرائزهما، وتأملت أعراض تحايرهما وجدتهما:

مطيعين أهواء توافت على هوى فلو أرسلت كالنبل لم تعد موقعا

فكانا علمين في ثوب الطهر، ونجمين في فلك اللطف، قد غذيا بدر الفهم، وربيا في حجر العلم، فهما يحلان دقائق الأشكال، ويفتحان مغالق الأشكال.» [10]

وبعد هذا الوصف يستطرد في الإتيان بنصوص تصف الأليفين، ثم يأتي على بداية الحوار فيقول:« فقال أحدهما لصاحبه: منحت ودك، ومنعت فقدك، وجعلت فداك، طيبة نفسي بذاك:

وليس بتزويق اللسان وصوغه ولكنه قد خالط اللحم والدَّمَا

وأنت على ما أدعي أعمل شاهد، وله أفضل ناقد، وأنا أفضي إليك بمعظم سري، وأفاوضك عن مهم أمري، وأقول متمثلا:

وأنْبَأْتُ عَمْرًا بعض ما في جوانحي وجَرَّعْتُه من مرِّ ما أَتَجَـرَّعُ

ولابد من شكوى إلى ذي حفيظة إذا جُعِلَتْ أسرار نفسي تُقَطَّعُ[11]

ثم يستطرد في هذه النجوى العاطفية، وقد يجره الاستطراد إلى مناسبات أخرى، ثم يعود بعد ذلك إلى تتمة الحوار، فيقول: « قال فهاك – جعلت فداك – أول ذاك، ما الذي يثير كوامن القلوب، ويميط ودائع الغيوب، ويولد الهوى، بين المحب والمحبوب.» [12]

وليس الكتاب حوارا من أوله إلى آخره، وإنما يكون الحوار تمهيدا لما سيسوقه من أخبار العشاق وأشعارهم.

ومن مميزات التشكيل الحواري الذي تضمنه كتاب المصون، أنه جاء ممزوجا بالسرد المتجسد في الاستطراد الذي وسع كل الكتاب، دون الإخلال بتفاعل الأليفين اللذين شملهما الحوار، ولا عجب في حضور الاستطراد إلى جانب الحوار في هذا الكتاب، الذي لم يخرج عن شاكلة بقية كتب الحصري التي شكلت فيها الظاهرة الاستطرداية حضورا أساسيا في مختلف المواضع.

ب- الاعتماد على آلية الاختيار:

إن الاختيار خاصية منهجية أساسية؛ اتسمت بها كل مؤلفات الحصري، لاسيما كتاب المصون الذي هو كغيره من كتب الحصري التي تعنى بالنقل، وليس فيها من إنشاء المؤلف إلا النزر القليل المتعلق بمقدمة وخاتمة الكتاب، وبعض النفحات النقدية الموجزة، أو التعليقات المقتضبة. ويتضح تصريح الحصري بهذه الخاصية المنهجية في قوله:« وسأجري في طرف من هذا المعنى على طريق اختيار، وسبيل اختصار، كما مرّ في سائر أبواب الكتاب.» [13]

ولا يتوقف الاختيار عند الأخبار التي ساقها الحصري خارج السياق الحواري، بل يتجلى الاختيار حتى في الخطاب الحواري الدائر بين الأليفين؛ ذلك أن جميع ما يرويه على لسان الأليفين المتحاورين منقول عن أخبار القدماء، مما يعني أن الحصري جامع لأخبار العشاق وما قيل في فلسفة الحب.

ت- توخي الاختصار:

إنّ تبني الاختصار كآلية منهجية في كتاب المصون، وفي غيره من كتب الحصري؛ يعكس مدى قدرة المؤلف على الاستيعاب للتراث الأدبي، وبذلك يمكننا القول أن جنوح الحصري للاختصار هو اعتراف ضمني منه على سعة رصيده، لاسيما ونحن نعلم أنه من الأدباء الموسوعيين.

ومما هو قمين بالذكر أن الاختصار جاء رديفا للاختيار دائما عند المؤلف؛ حيث يقول:« وسأجري في طرف من هذا المعنى على طريق اختيار، وسبيل اختصار، كما مر في سائر أبواب الكتاب.» [14]

4.المنهجية المُسْتَنْتَجَة:

أ- كتابة المقدمة بعد إنهاء التأليف:

يتضح أن الحصري كتب مقدمة كتابه بعد الفراغ من التأليف؛ لأن المؤلف يذكر في هذه المقدمات منهجه وطريقته التي سار عليها في الانجاز. ولعل تبني الحصري لهذه الطريقة يرجع إلى رغبته في إرساء قواعد منهجية لغيره من المؤلفين؛ للسير عليها في مضمار التأليف، فغايته في ذلك تعليمية تثقيفية، ولايستبعد الباحث تأثر الحصري بالجاحظ في هذا المنحى؛ لأن منهج الجاحظ إضافة إلى خصوصيته العقلانية، فهو منهج تعليمية يسعى إلى نشر البلاغة وتعليمها عند الخاصة والعامة. وإلى حث المسلمين خاصة إلى تعاطيها والإقبال عليها.[15] لاسيما وأن البلاغة قديما كانت تشمل النقد والأدب على حد سواء. لذا جاء النقد مختلطا بالبلاغة في كل كتب الحصري تبعا لما كان سائدا في عصره.

ب- الجمع بين التنظيروالتطبيق:

يتَّبِعُ الحصري طريقة منهجية مهمة؛ حيث قام في مقدمة الكتاب بتوضيح وشرح الخطوات و العناصر المنهجية التي اعتمدها في التأليف، وهو ما أسميناه بالجزء النظري، ثم يقوم في الجزء التطبيقي بتنفيذ الخطوات المذكورة في القسم النظري؛ وعليه فالمقدمة تمثل الجزء النظري، ومتن المدونة يمثل الجزء التطبيقي. وهو الجزء الأكبر في الكتاب.

ت- تجلي الصبغة الموسوعية للكتاب:

نحن نعلم أن الحصري من أولئك المؤلفين الموسوعيين، الذين يطرقون مختلف الفنون في تآليفهم، ولا أدل على موسوعية المؤلف من توسله بمختلف أخبار العشاق والمحبين على اختلاف العصور والأمكنة، والثقافة، حيث سافر بنا من العصر الأموي إلى العباسي، ومن الثقافة العربية إلى الثقافة الهيلينة، والفارسية. فضلا على تطعيمه بشيء من النقد الأدبي رغم أن الكتاب لم يوضع للنقد أصالة.

وليس غريبا أن يتصف الكتاب بالموسوعية مادامت مؤلفات الحصري تدرج ضمن كتب الأخبار الجامعة التي تحقق لذة الإمتاع والمؤانسة لدى المتلقي. إذ صُنِّفَ الحصري ضمن طراز الأدباء الإخباريين، الذين

يصلحون للمنادمة والسمر لحفظهم الأجناس الأدبية المألوفة في عصرهم مجسدا فكرة الأخذ من كل فن بطرف. مما يجعله غير ملتزم بأي قاعدة في تفسير النصوص والتعريف بالأعلام.

ث- الاعتماد على المصادر المشرقية:

عادة الحصري نقل التراث المشرقي للمغاربة، فقد اعتمد عليه بشكل كبير في التأليف، وفي مقابل هذا الاهتمام الكبير بالتراث المشرقي، نأتي للقول بقلة التراث المغربي في هذا الكتاب، وهذه قضية مهمة قد ناقشها الباحث فيما سبق من مباحث هذا البحث. مشيرا إلى خلفياتها متوقعا مبرراتها.

أما ما يتعلق بمصادر المصون فهي ذاتها مصادر الزهر والنورين وجمع الجواهر؛ وهي مصادر كتب التراث الأدبي القديم التي تؤلف في جميع الأجناس، فهو ينقل عن البديع الهمذاني، وعن الجاحظ، والأصمعي، وغيرهم من الأدباء العرب المبرزين.

ج- إظهار السَّمت الأخلاقي:

يشكل حضور الحاسة الدينية للحصري سمة منهجية بارزة ومهمة، حيث تعكس جانب من شخصية المؤلف، وتبرز ميزة مهمة في عصره، وهي التزام العلماء والأدباء بالوقار والاحترام، أما ملامح السَّمت الأخلاقي للحصري في كتاب المصون يمكن استظهارها من خلال مطلع المقدمة الذي يفتتحه بالثناء على الله والصلاة على النبي الكريم. ثم بالاستغفار الذي ينهي به خاتمة كتابه حيث قال:« وأنا أستغفر الله من الاشتغال بفضول المقال والأعمال.» [16]

كما يظهر سمته الأخلاقي في إيراد أخبار عشق العلماء، والزهاد، والأكابر من الأمويين والعباسيين من أمثال: عبيد الله بن عبد الله بن عتبة بن مسعود، وهو من الفقهاء السبعة، ومن الأمراء نجد: يزيد بن عبد الملك، وابن المعتز وغيرهما ممن حفل الكتاب بأخبار عشقهم.

ح- استهداف التنويع الأدبي:

إن التنويع الأدبي الذي جسَّده كتاب المصون يعكس بعدا حضاريا وثقافيا عميقا؛ كما يبرز خلفية مهمة في العملية التأليفية عند الحصري، ويتعلق الأمر بإمتاع القارئ، ووعي المؤلف المبكر بنظرية التلقي، كما أنه لاشك دليل واضح على موسوعية المؤلف الذي أحاط في كتابه بشتى الفنون الأدبية. لكن المميز في كتاب المصون أنه مزج بين النمط الحواري - الذي شَكَّلَ حضورا بارزا مقارنة ببقية كتب الحصري – بالسرد الذي يتضمن القصة (الخبر)،والمقامة، والقصيدة، والطرفة .. الخ

خ- تحاشي الترتيب والتبويب:

لا نستغرب اعتماد الحصري على طريقة اللامنهجية - بالمفهوم المعاصر- في تنظيم المادة الأدبية لكتبه، لاسيما كتاب المصون؛ لأنه يستهدف إمتاع القارئ وتشويقه، مما يعكس بجلاء اهتمام الحصري بالمتلقي واستحضاره أثناء العملية التأليفية، وسنفصل في مناقشة هذه الظاهرة المنهجية في المبحث المتضمن لمؤشرات المنهج المشترك (الموحد).

د- الإحاطة بمفاهيم ومقاييس موضوعات المدونة:

يقدم الحصري جملة من المفاهيم والخصائص المتعلقة بمختلف الموضوعات الرئيسية لكتبه؛ وليس المصون وحده من اختص بهذه السمة، حيث نجده في كتاب جمع الجواهر يعطي مفهوما شاملا للنادرة، كما يحدد بعض الشروط الخاصة بنقل النادرة، وبعض الشروط الواجب توفرها في النديم، والشيء نفسه نجده متجسدا في كتاب المصون؛ حيث أورد مجموعة من الآراء المتضمنة لمفاهيم الهوى، وبعض المبادئ التي يقوم عليها الحب، إضافة لبعض الصفات المتعلقة بالمحب. وسنرى ذلك في العناصر الآتية

ذ- استيفاء المرادفات اللغوية لكلمة (حُبٌّ):

استوفى المؤلف المرادفات اللغوية لكلمة حب، وأسهب في إيراد المترادفات وشواهدها نقلا عن فقه اللغة للثعالبي، وعن أبي عبد الله المرزباني الذي قال عنه:« وأتى بيسير من كثير، واقتصر من قبض على برض، وافتقر إلى استخدام بعضها من بعض.» [17] ومن هذه المرادفات التي جاء بها الحصري: التتيم، الجوى، الوله، الوداد، المودة، المحبة، الحب، العشق، وغيرها من المرادفات التي سترد في ثنايا النماذج النصية التي سنوردها ضمن ما سيأتي من مؤشرات منهجية؛ حتى لانقع في معيب التكرار.

ويقول الدكتور الشويعر:« لم نر أحدا من الكاتبين في الحب ولع باستيعاب المترادفات لكلمات الحب غير الحصري في المصون.» [18]

ر- محاولة الإحاطة بمفهوم الحب:

لقد حاول الحصري استيفاء معاني الحب؛ من خلال الحوار الدائر بين الأليفين، ومن خلال تعريفات القدماء العرب واليونانيين. وإن أول ما نسوقه في هذا المقام هو إشارته إلى فلسفة الحب المتأصل عن تآلف الأرواح محتجا بالحديث الشريف:« القلوب أجناد مجندة، فما تعارف منها ائتلف، وما تناكر منها اختلف.» وقد أورد أبياتا كثيرة من الشعر العربي التي تناولت معنى الحديث، وجاء بعدها بقول من صميم الفلسفة الأفلاطونية في مفهوم الحب:« وقال بعض الفلاسفة: خلق الله الأرواح جملة واحدة كهيئة الكرة، ثم قسمها أجزاء بين الخلائق، فإذا لقي الروح قسيمه، أو شقيقه أحبه؛ لاتفاق القسمين، وازدواج الجزأين، فيكون بذلك الالتئام الذي لا فطور معه، وكذلك إذا قرب منه، أو دنا من قسيمه، فيحسب ذلك وقوع المودة، وتصادف المحبة، ويقع التباين، والتقاطع بقدر تباينهما.» [19]

ففي الجزء الأول من هذا الكلام تقاطع كبير مع الحديث النبوي، وفي الجزء الثاني فهم لطيف لمعنى الحب المرتبط بالاختلاف الذي يؤسس إلى التجاذب؛ ذلك أن المزاوجة تقتضي التباين أكثر من التشابه.

وقد نقل نماذج أخرى في مفهوم الحب، ومن هذه النماذج المفاهمية المنقولة نجد:

قوله على لسان أحد الأليفين:« وشهدت أن الهوى يجذع العقل، ويسحره، ويملك اللب ويقهره، ويغلب القلب ويبهره، حتى يرتبط بملكه، وينخرط في سلكه، وعهدته لا يتعلق إلا بذوي الأفهام اللطيفة، والأوهام الشريفة.» [20]

ففي هذا النموذج يشير إلى تأثير الهوى على الإنسان، فيتعب قلبه وعقله. حتى أنه أوضح في موضع آخر أن الحب يذل النفوس، وجاء ذلك فيما نقله عن الفضل أحمد بن أبي طاهر:« وصف بعض البلغاء الهوى، فقال: هو فضيلة تنتج الحيلة، وتشجع قلب الجبان، وتسخي كف البخيل، وتصفي ذهن الغبي، وتطلق بالشعر لسان

المعجم، وتبعث حزم العاجز الضعيف، وهوعزيز تذل له الملوك، وتصرع له صولة الشجاع، وينقاد له كل ممتنع.»[21]

ثم يأتي بمفهوم آخر، يعلل فيه المحبة بكمال الأخلاق، حيث قال أحد المتحاورين: «والمحبة المقصورة على حسن الصورة، مع تغيرها تتغير وتزول، وبتنكرها تتنكر وتحول، وقد يضطرب في حبائل الفنون، من أقصدته سهام العيون، قبل أن يتفرس وجوه الفضائل، فلا يتخلص من تلك الحبائل، ويملكه سلطان الخذلان، فيتعلق بأسباب الخلاص، ولات حين مناص.» [22]

من هذا النموذج يتبين لنا أثر التوجه الروحي للحصري؛ فهو يعلل الحب بمنطق الذاتيين الذين يعتبرون الحب بهجة توجد في قلب المحب، دون تقيد بمواصفات خارج الذات، من خلال اعتبار الأخلاق(العفة) الدعامة الأساسية والدافع الأساسي للحب؛ لأن المحبين يخلعون على أحبابهم كمال الأخلاق، وكل ما من شأنه إظهار النقص فيهم، بناء على منطق: وعين الرضا عن كل عيب كليلة.

ونسوق نموذجا آخر لتعريفات الحب، حيث أورد الحصري كلاما لليونانيين في الموضوع فقال:« وقال بعض التراجمة: العشق ارتياح يجول في الأرواح، وجوهر فلكي تنتجه النجوم، بقدر مطارح شعاعها، وتولده النفوس بوصلة أشكالها، وتقبله الأوهام بلطف جواهرها.» [23]

والحق يقال أنني لم أجد تفسيرا لهذا المفهوم الذي يربط عاطفة الحب بشعاع النجوم، وهذا ما يجعلنا نتوقع أن الحصري قد أورد ذلك من باب المتعة والطرفة؛ لأننا وجدناه أحيانا يورد أقوال وآراء الفلاسفة بصيغة التكذيب، ومن ذلك قوله:« وقد تكلم على مبادئ الهوى، وأوائل الجوى، بعض المتفلسفين من طريق الحدس لا من طريق العلم اليقين.» [24]

ز- بيان دوافع الحب:

يأتي الحصري لتحديد بعض الأسباب الداعية إلى حصول العشق بين المحبين؛ فيذكر لنا الدوافع الآتية على لسان أحد الأليفين فيقول:« قال فهاك- جعلت فداك- أول ذاك، الذي يثير كوامن القلوب، ويميط ودائع الغيوب، ويولد الهوى، بين المحب والمحبوب؟ قال: أما ما يبعثه من المغرم الوامق، ويحركه من المتيم العاشق، فملاحظة وجه الفضل، وملافظة اللسان، في شخص تكمل آلاته، وتتم أدواته، بما يقع تحت مشاكلة الناظر للحظة، أو السامع للفظة، فيحن إليه حنين الغريب إلى وطنه، والنجيب إلى عطنه، ومن قاد قلبه واسترعى حُبّه، كمال الخُلق البارع، قبل كمال الخلق الرائع، دلت نوازع هواه على تسديد مرماه، وصواب ما ارتماه، كما قال أبو الطيب المتنبي:

أصادق نفس المرء من قبل جسمه وأعرفها في فعله والتكتم.[25]»

في هذا النص يظهر تركيز الحصري على الأسباب الوجدانية، دون أن ينكر أهمية الجوانب الحسية في إثارة مشاعر الانجذاب والتعلق. وهذا بلا شك يعكس العمق الروحي الذي يكتنف شخصية المؤلف التي جعلته يميل إلى رصد الصفات المعنوية أكثر من الصفات الحسية.

س- تحديد مبادئ الحب وصفاته:

يمكن القول أن الحصري كان محيطا بمسألة الهوى بشكل جيد؛ ظهر من خلال المفاهيم التي ساقها عن الحب، إضافة لتحديده المبادئ التي يقوم عليها الحب، علاوة على تحديد أوصاف المحبين أيضا كما سنرى. أ ما ما يتعلق بالمبادئ الحبية فنقف عليها من خلال النص الآتي:« وقد يعترض الصادق المصدوق، ويعرض الوامق المموق، عند تقابل الجواهر، والثقة بأنها نظاير، إذا أضاءت الأنوار، بين الأسرار، وأيقنت النفس أنها نزلت بشكلها، وحلت في محلها، ووقعت من قلادة الصفاء في البسطة، ومن دائرة الوفاء في النقطة.» [26]

فمن هذا النص لوح الحصري إلى مبادئ الهوى؛ ومنها أن يلمح المحب في حبيبه دلالة الإخلاص له، والصدق العاطفي، ويتوج ذلك كله الثقة التي تعمل على حفظ الأسرار، وتبعث الطمأنينة في نفوس المحبين؛ لأن حصول الثقة يعني حصول الصفاء بين المحبين.

ش- تحديد صفات المُحِبْ:

يعدد المؤلف جملة من الصفات التي يكون عليها المحب في الهوى المصون، ومن هذه الأوصاف نجد قوله على لسان أحد المتحاورين بعد استطراد طويل:«ثم يزداد التتيم فيصير وَلَهَاً وهو الخروج عن حد الترتيب، والتعطيل عن أحوال التميز، حتى تراه يطلب ما لا يرضاه، ويتمنى ما لا يهواه، ثم لا يحتذي في ذلك مثالا، ولا يستوطن حالا. قال أبو تمام:

وَلَهتْهُ العُلَا فليس يُعِدُّ البؤس بؤساً ولا النعيم نعيماً

والشوق تابع لكل واحدة من هذه الأحوال، والمستحسن مشتاق إلى ما يستحسنه على قدر محله من نفسه، ثم كلما قويت زاد معها الاشتياق، فقال له: قد وصفت فأنصفت، وقسمت فأحكمت، ورتبت فأعجبت. ولكن لما أشرت فيما ذكرت، ولوحت فيما به صرحت، من انكشاف العيوب، بين المحب والمحبوب، بصدق الحال، دون نطق المقال، وذهبت إلى استعمال الكتمان، وترك الإعلان، حتى يتضح الأمر، وينكشف السر، بغير إشارة بالأخبار، ولا دلالة على الإضمار، قال: أجل؛ لأنه الوسيلة إلى كل فضيلة، والدليل على صحة الامتراء، وصريح الاغتراء، وصدق المخبر، وخلوص القلب، وأن لا غرض للمحب يتبعه، ولا حظ يقتضيه، ولا سبب يعلق به زمام رجائه وتأميله، ويمد إليه يد عبثه وتعويله، كذاك الوداد المحض، لا يرتجى له ثوابه، ولا يخشى عليه عقابه، ومصاحب هذه المذاهب، يلبس ثوب الأمان، من ريب الزمان، وينال الاستمتاع بالاجتماع، تحت أمن مكايد الواشين، ومقاصد الساعين، وإذا ظهر للمحبوب عزوف مُحِبَّهِ عن كل مطلوب، وما تَحَمَّلَهُ من الكلل وكابده من الثقل، بطي ما عليه درج قلبه، من سر حبه، وعلم ما التزمه من مصاحبة التصافي، ومجانبة التجافي، وبيّن له أن أعظم مراده إخلاص اعتقاده، نظر إليه بعين الإجلال، وضم إليه جناح الإشمال، وأجناه ثمر الإقبال، جزاء بصدق ما قال.» [27]

هذا النص الطويل يجمع بين ثلاث عناصر مهمة في مسألة وهي مفهوم العشق، ومراتبه، وصفات العاشق. مما يعكس إلمام الحصري بموضوع كتابه. وأما أوصاف المحب فنلخصها على هذا النحو:

المحافظة على السر، فذلك دليل صدق الحب، وهو وسيلة لاتقاء شر الكائدين، وأن يكون الحب لذاته وليس من أجل غاية يريدها العاشق، وتلك أسمى مراتب المحبة الخالصة، التي تحقق الأمان العاطفي والأنس بالمحبوب. ومن أهم الصفات هو الصبر على جفاء المحبوب، فذلك دليل على صدق المحبة.

وفي هذه النقطة يتضح وعي الحصري العميق بمسألة الحب؛ ذلك أن كثير من العشاق يقعون في الهوى رغما عن قلوبهم، دون تفكير في استجابة الحبيب، أو تجنيه. وفي هذا الكلام الذي جاء به الحصري تبرير صريح على دعوته للإخلاص المطلق للمحبوب، حيث استغرب الشويعر هذا التعليل، ويبدو أنه لم يتأمل جيدا هذا النموذج الذي يتضمن تبرير الحصري.[28]

ويواصل الحصري بيان صفات المحب ضمن نص استطرادي طويل جاء فيه: "لا يتعلق- أي الهوى- إلا بذوي الأفهام اللطيفة، والأوهام الشريفة، ممن اتسعت في الأرباب رباعه، وامتد في الأدب باعه، وطال في الفضل ذرعه، وزكا أصله وفرعه، وكرم ذهنه وطبعه، وشفّ بصره وسمعه، وأَلِفَ من الحلاوة بحرا عذبا، وصادف من الطلاوة برا تربا، وشرب من اللطافة ماء رويا، وأدرك من الظرافة مهادا وطيا، ونال من الترافة شرفا عليا، فأصبح متفيئا في ظل ظليل، ونسيم عليل، وهواء بليل، في روض جادته سحائب الفضل والكرم، وافتر عنه بوارق المجد والهم."[29]

وهذه أوصاف معنوية تدل على عمق معرفة المؤلف بصفات المحبوب، ولاشك أن الحصري قد اتصف ذات عشق، أو أنه خبر هذه الصفات في عشاق رآهم رأي العين، أو سمع منهم فترجم حالهم

ص- الميل للبديع:

وهذه سمة كُتَّاب القرن الرابع هجري، والحصري من أكثر المتأثرين بالمذهب البديعي، ويظهر ذلك من خلال احتفائه بنصوص البديع الهمذاني، ومن خلال تبني طريقته في النثر الفني، إضافة إلى الحضور القوي للسجع في كتاب الحصري، سواء في لغته الإنشائية، أو في النماذج المختارة، ومن معالم تأثر الحصري بهذا اللون الفني، توظيفه للسجع والجناس في عنوان الكتاب، إضافة إلى الاستعارات المتوزعة عبر ثنايا الفقرات الإنشائية، والنصوص المنقولة؛ ومن هذه النماذج نجد ما قاله على لسان أحد المتحاورين:« فكانا علمين في ثوب الطهر، ونجمتين في فلك اللطف، قد غذيا بدر الفهم، وربيا في حجر العلم.» [30] وهي استعارات مكنية عمقت المعنى المقصود، ودلَّت على البراعة اللغوية لصاحب النص، وكذا روعة ذوق المؤلف الذي أتاح له ذوقه الأنيق اختيار هذا النموذج النصي الرشيق.

ض- توظيف الاستطراد:

الاستطراد ظاهرة شائعة في كتب الحصري، وتمثل انعكاسا للبيئة الثقافية السائدة التي كانت تتبنى الاستطراد كظاهرة فنية في التأليف، فالحصري من هذه الناحية متأثر بعصره، حيث يمكننا الوقوف على هذه الظاهرة بيسر؛ ذلك أن الحصري يبدأ كتابه بحديث المتحاورين، ثم يستطرد في نقل الشواهد الخاصة بأخبار العشاق، ليعود بعدها إلى تتمة الحوار، ليخرج منه استطرادا إلى الأخبار والأشعار. وهذه عادة الحصري في كل كتبه.

ولعل أهم سبب يجعل الحصري يعتمد على الاستطراد في تأليف كتبه هو غزارة المادة الأدبية التي تعامل معها، فهي تمثل تراكمات إبداعية لعصور مختلفة ومبدعين كُثُر. لذا نستبعد أن يكون استطراد الحصري ضرب من النقد السياسي ذلك أن الحصري لم يعرف عنه تفاعله مع القضايا السياسية في عصره. وفي هذا يرى الباحث أن الحصري يختلف عن الجاحظ في توظيف الاستطراد؛ لأن الجاحظ بزعم بعض النقاد لم يوظف

الاستطراد بغرض الإمتاع والتسلية، وإنما وسيلة للرفض والتعرية النقدية. معبرا عن رفضه للنسق المهيمن عبر لعبة السخرية التي تمكنه من العبث بالنسق دون ملاحظة الرقيب المؤسساتي. أو بمعنى آخر لقد وظف الاستطراد كموقف نقدي للسلطة بطريقة مُمَوَّهة.[31]

ويمثل الاستطراد خاصية منهجية دائمة في كل مؤلفات الحصري، ويبدو أنّ الحصري متأثر بالجاحظ في تبني هذه الخاصية الأسلوبية؛ لاسيما كتابه "البيان والتبيين" الذي حدد مفهوم الأدب بمنهجه قبل كل شيء، حتى أصبح نموذج العرب في منهج التأليف استطرادا، وتحررا من قيود وحدة المواضيع. والهدف المنشود من كل ذلك ليس الأخذ من كل فن بطرف، بل تقديم شتات الأطراف من كل الأشياء تقديما مزيجا خليطا، قد يظهر للقارئ المعاصر ضربا من الفوضى. وبحكم انتشار هذا المنهج التأليفي اقتنع معظم النقاد القدامى، والمحدثين بأن ذلك المسلك في التأليف هو أسٌّ من أسس الأدب العربي.[32]

ط- الاحتفاء بظاهرة الوصف:

تتجسد خاصية الوصف في كل كتب الحصري، ولا نستغرب فقد اهتم كتّابه اهتماما عظيما بوصف ما وقعت عليه أعينهم أو جرى في خواطرهم، ولم يكن الوصف عندهم مما يأتى عفوا عند المناسبات الطارئة، كما كان الحال في أوائل العصر الإسلامي، لا، بل تعمدوا استقصاء الموضوعات الوصفية: فأطالوا الحديث عن الأزهار، والرياض، والنبات، والنسيم، والرياح، والليل، والنجوم، والجداول، والغدران، والأنهار، والبحار، والأحواض، والقصور، ومنازل اللهو، ومجالس الشراب، والنساء، والغلمان، والجوارى السود، والقيان، وآلات الطرب، ومحاسن الشباب، وأهوال المشيب، والرعد والبرق، والمطر والثلج، والصحو، والبلاغة والشعر والنثر، والخيل، والسيوف، والنار، والأفاعي، والثعابين، والطيور، والأطعمة، والفواكه، والسكاكين، والكؤوس، والخواتم، والحلي، والقلائد، والمحابر، والأقلام، والسفن، والدواب، والجيوش، والأساطيل، وأيام الصيف والشتاء والربيع.[33]

وأطنبوا في وصف المعاني الوجدانية، كما أطنبوا في وصف المرئيات، فتكلموا عن أهواء النفوس ونزعتها، فوصفوا الحقد، والبغض، والكرم، والنبل، وعرضوا لما يقع لأهل المهن وللرؤساء من الهنات والعورات. كل ذلك بطريقة مقصودة تدل على أنه كان لهم برنامج خاص لم يعرفه أسلافهم. وهذا المذهب له عيوبه ومزاياه: فعيبه أنه حملهم على التكلف والإسراف، وحسنه أنه حملهم على تنظيم أفكارهم، وترتيب أغراضهم، فإن القارئ يرى لهم قوة في تصوير المرئيات والمعنويات لا يراها لمن سبقوهم، وذلك بفضل هذا الاتجاه الذي جعل في عصرهم مدرسة وصفية لا نراها في عصر الخلفاء ولا عهد بنى أمية ولا أوائل أيام بنى العباس. ولكننا نقرر أن كتّاب القرن الرابع عمدوا إلى كل ما يقع عليه الحس، أو يجرى في الخاطر، أو ينقده العقل، فوصفوه وصفا مفصلا مقصودا بطريقة لم يفكر في مثلها المتقدمون.[34]

ذلك مادامت الظاهرة تمثل انعكاسا للبيئة الثقافة في عصره، حيث شاع الوصف عند مؤلفي القرن الرابع هجري،

أما انعكاس ذلك في كتاب المصون فكثير، بداية بوصف الأليفين، وصولا لوصف الحب وما يتعلق بلواعجه. ولقد ذكرنا بعض أوصاف الأليفين في جزئية موضوع الكتاب.

ظ- امتزاج النقد بالبلاغة:

رغم قلة التراث النقدي في كتاب المصون؛ نظرا لموضوعه الأقرب إلى التخصص، فإن ما جاء فيه من تراث نقدي كان متداخلا مع البلاغة كغيره من كتب التراث العربي القديم.

ولا غرابة في ذلك مادام الحصري متأثر بإخوانه المشارقه؛ لأنّ المناهج النقديّة لم تكن قد تبلورت بعد، وقد تم تناول قضايا النقد الأدبيّ ممتزجة مع أصولها وأسسها، حسب مكوّنات بنائها وطبيعة تركيبها.

ليس من غرائب الأشياء ولا من الشّذوذ في الرأي أن نعثر في نقد هؤلاء المغاربة على المزج بين البلاغة والنقد، لأنّ المناهج النقديّة لم تكن قد تبلورت بعد، ولم تكن المصطلحات التي عرفتها العصور المتأخرّة بالجة المعالم، بادية للعيان، ويكون من الغلوّ بل من الظّلم أن نلتمس مناهج نقدية خالصة في لمحات هؤلاء؛ لأنّ الذين عنوا بقضايا النقد الأدبيّ إنّما تناولوها ممتزجة مع أصولها وأسسها، وتحدثوا عنها حديث المتعمّق في مكوّنات بنائها وطبيعة تركيبها، فقد تركّزت مفاهيمهم النقديّة على ما كان متداولاً قبلهم، إذ أنّ الذين سبقوهم عُنُوا في أحكامهم تلك بطبيعة وأنساق هذا المزج بصورة عامة، بل إن كثيراً منهم بنى منهج حكمه النقديّ على تأثرّه الواضح بالبلاغة، فأجهد نفسه في اختراع قضايا ذوات الصّلة الوثيقة بها بدءاً بالباحثين في إعجاز القرآن، ومروراً على الشارحين والمحلّلين للحديث النبويّ، وانتهاء بالدارسين للآثار الشّعريّة وحدها.[35]

ع- الاحتفاء بظاهرة السرقات الأدبية(النقد التطبيقي):

لاشك أن لموسوعية المؤلف الأثر الكبير والمباشر في احتفائه بهذه الظاهرة التي تمثل صميم النقد التطبيقي، حيث وجدنا المؤلف يُعْنَى في كتابه بجمع الأشباه والنظائر، سائرا على نفس المنهج الذي طبَّقه في تصنيف كتبه الأخرى، ولعل الغاية الأولى من تتبع الشواهد الأدبية في سياق التطبيق على هذه الظاهرة، هو الوصول لأكبر وأجود قدر من النماذج النصية المعللة لمسألة العشق.

غ- قلة التراث النقدي :

إن حظ المصون من النقد قليل كحظ بقية مؤلفات الحصري من النقد الأدبي واللغوي المقارنة مع مؤلفات مغربية أخرى تم إصدارها على أيام هاذين الكتابين، لنظراء الحصري من النقاد على غرار كتابي: العمدة والقراضة لابن رشيق، وكتاب الممتع للنهشلي، وضرائر الشعر للقزاز، وأعلام الكلام لابن شرف. الأمر الذي يوضح أن الكتاب لم يوضع للنقد أصالة، بقدر ما هو مناسب للإفادة الأدبية والمتعة الفكرية.

وهذا مما دفع بالدكتور بشير خلدون للحكم بقلة حظ الحصري من النقد، ولكنه مع ذلك يعتبر من بين النقاد الذين ظهروا في المغرب في هذه الفترة الزاهرة.[36]

ف- الانفتاح على الثقافة الأجنبية:

يظهر هذا الانفتاح من خلال الاستعانة بآراء الفلاسفة اليونانيين من أمثال أفلاطون وفيتاغورث وجالينوس وغيرهم ممن فلسفوا الحب، ويظهر أثر ذلك الانفتاح في تقديم الحصري لنماذج نصية تتقاطع مع الفهم الهيليني لمسألة الحب؛ ومن ذلك أنه ربط عواطف الإنسان بشعاع النجوم من باب المتعة والطرافة كما أشرنا إلى ذلك سابقا.

ق- توظيف النثر الفني:

لم يخل المصون كغيره من كتب الحصري، من ظاهرة النثر الفني التي تنوعت بتنوع الطرائق التي رصدها المؤلف في كتابه؛ بما في ذلك طريقة النثر الفطري، والنثر البديعي. وما إلى ذلك من أساليب النثر.

ك- تجلي البعد الأخلاقي في التأليف:

يتجلى السمت الديني للحصري القيرواني في تحاشيه أخبار المجون، والمعاني الخادشة للحياء المنافية للذوق العام. وهذه السمة ليست مقصورة على هذا الكتاب. بل هي خصيصة منهجية في كل مؤلفات الحصري.

ويرى محمد أركون أن تأثير الإسلام، كان دائما ثابتا. عميقا. مستمرا حتى يومنا هذا، على كل مناحي الحياة بما في ذلك الخطاب الأدبي والفني عامة، بوصف هذا الخطاب انعكاس لحياة الإنسان بكل تمثلاتها مما أسس لعلاقة قوية بين النظام العقدي وتصورات الإنسان وأحكامه حول الأدب، باعتبار النظام العقدي سلطة ثقافية ومرجعية – على مستوى التصور ومستوى القيمة- ينطلق منها الإنسان في صياغة مواقفه ورؤاه. وهذا ماجعل النقد العربي القديم، مرهونا لهذه السلطة.[37]

5. خاتمة

أجدد التذكير ختاما بقول إن خطة الموضوع انتظمت في أربعة مباحث؛ حيث تضمن المبحث الأول التعريف بالمؤلف، بينما تناول المبحث الثاني التعريف بمدونة الدراسة، وهو كتاب المصون في سر الهوى المكنون(المصون)، ثم خصصت المبحثين الأخيرين للعناصر المنهجية المتحققة في المدونة؛ حيث تناولت في المبحث الثالث المؤشرات المنهجية المصرح بها من طرف الحصري القيرواني، وقد قسمتها إلى نوعين؛ تمثل النوع الأول في المؤشرات الشكلية، وتحدد النوع الثاني في المؤشرات المضمونية. أما المبحث الرابع فخصصته للمؤشرات المنهجية المستنتجة من خلال قراءتي الاستنتاجية، التي حاولت فيها مناقشة ونقد بعض الظواهر المنهجية. وفيمايلي أهم النتائج التي توصلت إليها في خضم البحث:

- يقوم كتاب المصون على وعي منهجي ملحوظ، حيث قام الحصري في مقدمة الكتاب ببيان الخطوات المنهجية التي اعتمدها، ثم نجده يطبقها في متن المدونة. مما يعني أنها تتضمن قسمين، أولهما القسم النظري المشتمل على تصريحات المؤلف المنهجية، وثانيهما القسم التطبيقي الذي يحتضن تجسيد الحصري لآليات التأليف المنهجية المقررة في القسم الأول.

- يُظهر هذا الكتاب تأثر الحصري بالمشارقة الذين كتبوا كثيرا في مسألة الحب، ولعل ولعه بهذا الجانب الوجداني الذي ظهر أثر ولوعه به حتى في شعره؛ بشهادة الشويعر الذي قال بكثرة اهتمام الحصري بالكتابة في الغزل العفيف، ناهيك عن ميله إلى استحضار مختلف الشواهد العاطفية في غيره من المدونات هو الذي أوحى له تأليف المصون، وتخصيصه للحديث عن هذه المسألة. ويتوقع الباحث أن يكون الحصري متأثر برسالة الجاحظ الموسومة بـ: في العشق والنساء، والتي تعتبر من أقدم ما كُتِبَ في باب التأليف في الحب.

كما يظهر تأثره التأثر بالمشارقة في تبني الاستطراد وبخاصة الجاحظ في كتابه البيان والتبيين.

- الكتاب أدبي وحظ النقد منه قليل جدا ذلك ان المؤلف قصد الأدب ولم يقصد النقد.

- لقد توجه الحصري نحو التخصص التأليفي في كتاب المصون؛ ذلك أنه معروف بإكثاره من نقل التراث المشرقي في كل مؤلفاته الموسوعية .

- تتضح خصوصية البيئة الثقافية في الإكثار من البديع الذي كان سمة العصر الصنهاجي ويظهر هذا الميل البديعي بدءا بعنوان الكتاب الذي جاء محتفيا بالسجع.

الهوامش:

[1] - ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، الدار التونسية للنشر،تونس،1986م.ص:45

[2] - وردت ترجمته في الكتب التالية :

- أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط، عصر القيروان، دار المغرب العربي ،تونس،ط1، 1973م،ص:65.

- ابن رشيق القيرواني، أنموذج الزمان في شعراء القيروان ، ص: 45.

- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس ،دار صادر، بيروت لبنان ،1977م.

- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: رمضان عبد التواب، دار المعارف القاهرة، ط2 ،5/ 105.

- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1 ،2/149.

- محمد بن سعد الشويعر، الحصري وكتابه زهر الآداب، الدار العربية للكتاب ليبيا- تونس،1981م ،ص: 65.

- علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان ط1 1979 القسم الرابع، 584/2.

- حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، مكتبة المسار، تونس ، دط، 1968م، ص: 119.

- ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان،ط1، 1993 ،1/158.

- كامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة2002، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ،ط1 2002 ،1/57.

- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ، مطبعة الترقي، دمشق 1957 ،1/ 64.

- موسوعة إعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان،ط1 ،1980 ،1/327.

- عبده عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط1988،2م ، ص: 127.

- الحصري القيرواني، نور الطرف ونور الظرف،(النورين)، تحقيق ودراسة لينة عبد القدوس، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان ،ط1996،1م، ص: 20

- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الارناووط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، 2000م.

[3] - يُنْظَر: الشويعر، الحصري وكتابه زهر الآداب، ص: 66،67

[4]- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، مصر، ط1 ،1997م، 2/ 308

[5] - النورين، الحصري القيرواني، ص:102

[6]- لقد تناول الدكتور الشويعر كتاب المصون بالتعريف والتحليل، ضمن دراسته لكتاب زهر الآداب، الصادرة سنة 1891 أي قبل تحقيق الكتاب بست بالنسبة لتحقيق محمد عارف حسين، وثماني سنوات بالنسبة لتحقيق النبوي شعلان. وذكر- أي الشويعر- أنَّه رجع إلى نسخة من كتاب المصون مصورة عن نسخة خطية بمكتبة شيخ الإسلام عارف حكمت بالمدينة المنورة، تقع في 127 مائة وسبع وعشرين ورقة. كل ورقة صفحتان من القطع المتوسط، والنسخة كاملة بمقدمتها وخاتمتها .يُنْظَر: الشويعر، الحصري وكتابه زهر الآداب، ص:167.

[7] - إن الحوار الدائر بين العاشقين هو المتن الحقيقي للكتاب، وأنَّ ما عداه من نصوص أدبية تمثل تفسيرا لهذا الحوار، واستدراكا عليه، واستشهادا له؛ ذلك أن الكتاب عند تقيده بموضوعه هو حوار ودراسة لتحليل عاطفة الحب، كما أنه في استطراده مجموعة أخبار ونوادر. يُنْظَر: الشويعر، الحصري وكتابه زهر الآداب، ص:177

[8]- يُنْظَر: الشويعر، الحصري وكتابه زهر الآداب، ص: 197،198

[9]- الحصري القيرواني، المصون في سر الهوى المكنون، تح: النبوي عبد الواحد شعلان، دار العرب للبستاني، مصر،ط1، 1989م. ص:50

[10]-المصدر نفسه،ص:50

[11]- المصدر نفسه، ص: 52

12- [1]المصدر نفسه، ص:67

[13]- المصدر نفسه، ص:192

[14]- المصدر نفسه، ص:192

[15]- يُنْظَر: بومنقاش نبيلة، عبد السلام المسدي قارئا لمنهج تأليف الجاحظ، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة محمد خيدر بسكرة، الجزائر، المجلد4، العدد4، 2012 م. ص:180

[16]- الحصري القيرواني، المصون، ص:195

[17]- المصدر نفسه، ص: 90

[18]- الشويعر، الحصري وكتابه زهر الآداب، ص:179

[19]- الحصري القيرواني، المصون، ص:69

[20]- المصدر نفسه، ص:45

[21]- المصدر نفسه،ص:57

[22]- المصدر نفسه،ص:63

[23]- المصدر نفسه،ص:48

[24]- المصدر نفسه، ص:78

[25]- المصدر نفسه، ص:63

[26]- المصدر نفسه، ص:67

[27]- المصدر نفسه،ص:86،85

[28]- الشويعر استغرب دعوة الحصري من خلال كلام الأليفين إلى الإخلاص للمحبوب، قائلا – أي الشويعر- بفكرة وقوع الناس في الهوى دون إرادتهم غالبا، وكأني به قد جعل الحصري ساذجا في هذا الخصوص، إذ أن هذا الأمر معروف عند العامة والخاصة، ولم يفت الحصري تقرير المبررات الخاصة بهذا الأمر كما رأينا.يُنْظَر: الشويعر، الحصري وكتابه زهر الآداب، ص:174

[29]- الحصري القيرواني، المصون، ص:45

[30]- المصدر نفسه، ص:43

[31] - يُنْظَر: بومنقاش نبيلة، عبد السلام المسدي قارئا لمنهج تأليف الجاحظ، ص:184

[32] - المرجع نفسه،ص:178

[33] - الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تح:زكي مبارك،المطبعة التجارية الكبرى، مصر، 1931م. 24/1، مقدمة الطبعة الثانية

[34] - المصدر نفسه، 24/1، مقدمة الطبعة الثانية

[35] محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوّره حتّى القرن السّادس الهجريّ، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000م، ص: 145

[36] يُنْظَر: بشير خلدون، الحركة النقدية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981م.ص : 87

[37] يُنْظَر: العيد حراز وبوبكر بوشيبة، السلطة المرجعية للنظام العقدي، مجلة دراسات، مخبر الدراسات الصحراوية، جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر، المجلد 6، العدد1، 2017 م . ص:126

المصادروالمراجع

المصادر:

- الحصري القيرواني، المصون في سر الهوى المكنون، تح: النبوي عبد الواحد شعلان، دار العرب للبستاني، مصر،ط1، 1989م.

المؤلفات

- أبو القاسم محمد كرو وعبد الله شريط، عصر القيروان، دار المغرب العربي ،تونس،ط1، 1973م.
- ابن خلكان، وفيات الأعيان، تح: إحسان عباس ،دار صادر، بيروت لبنان ،1977م.
- ابن رشيق، أنموذج الزمان في شعراء القيروان، جمع وتحقيق محمد العروسي المطوي، بشير البكوش، الدار التونسية للنشر،تونس،1986م
- بروكلمان، تاريخ الأدب العربي، تر: رمضان عبد التواب، دار المعارف القاهرة، ط2 .
- بشير خلدون، الحركة النقدية، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع،الجزائر،1981م.

- حسن حسني عبد الوهاب، مجمل تاريخ الأدب التونسي، مكتبة المسار، تونس ، دط، 1968م.
- الحصري القيرواني، زهر الآداب وثمر الألباب، تح:زكي مبارك،المطبعة التجارية الكبرى، مصر، 1931م.
- الحصري القيرواني، نور الطرف ونور الظرف،(النورين) ،تحقيق ودراسة لينة عبد القدوس، مؤسسة الرسالة، بيروت لبنان ،ط1، 1996م.
- صلاح الدين الصفدي، الوافي بالوفيات، تح: أحمد الارنأووط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت لبنان، ط1، 2000م.
- عبده عبد العزيز قلقيلة، النقد الأدبي، الهيئة المصرية العامة للكتاب،ط2، 1988م.
- علي بن بسام الشنتريني، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ، تح د.إحسان عباس، دار الثقافة، بيروت لبنان ط1، 1979م
- عمر رضا كحالة، معجم المؤلفين ، مطبعة الترقي، دمشق 1957م.
- كامل سلمان الجبوري، معجم الأدباء من العصر الجاهلي حتى سنة2002، دار الكتب العلمية، بيروت لبنان ،ط1 2002م.
- محمد بن سعد الشويعر،الحصري وكتابه زهر الآداب، الدار العربية للكتاب ليبيا- تونس،1981م .
- محمد محفوظ، تراجم المؤلفين التونسيين ، دار الغرب الإسلامي، بيروت ط1 .
- محمد مرتاض، النقد الأدبي القديم في المغرب العربي نشأته وتطوّره حتّى القرن السّادس الهجريّ، منشورات اتحاد الكتاب العرب،2000م.
- مصطفى صادق الرافعي، تاريخ آداب العرب، مكتبة الإيمان، مصر، ط1 ،1997م.
- موسوعة إعلام المغرب، تنسيق وتحقيق محمد حجي، .دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان،ط1 ،1980م.

المعاجم:

- ياقوت الحموي الرومي، معجم الأدباء، تح: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي، بيروت لبنان،ط1، 1993م.

المقالات:

- بومنقاش نبيلة، عبد السلام المسدي قارئا لمنهج تأليف الجاحظ، مجلة قراءات، مخبر وحدة التكوين والبحث في نظريات القراءة ومناهجها، جامعة -محمد خيدر بسكرة، الجزائر، المجلد4، العدد4، 2012م.
- العيد حراز وبوبكر بوشيبة، السلطة المرجعية للنظام العقدي، مجلة دراسات، مخبر الدراسات الصحراوية، جامعة طاهري محمد بشار، الجزائر، المجلد 6، العدد1، 2017 م .